# بغداد في رحلة اليهودي بنيامين التطيلي الأندلسي

(561- 569هـ/ 1165-1173م)

أ.م.د. رضا هادي عباس
الجامعة المستنصرية – كلية التربية

**مقدمة:**

الحمد لله الذي جعل الأرض مهاداً، والجبال أوتادا، القائل في محكم كتابه القرآن الكريم: " أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا(6) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا(7)"(1) وجعل صحارى، وبلاداً ثم فجرت خلال ذلك أنهارا " وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا"( 2) وأسال أودية وبحاراً، وهدى عباده إلى اتخاذ المساكن، وأحكام الأبنية والمواطن، فشيدوا البنيان، وعمّروا البلدان، ونحتوا من الجبال بيوتاً " وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ"( 3) واستنبطوا آباراً وعيوناً، وجعل حرصهم على تشييد ما شيّدوا وقال الله وهو أصدق القائلين: "أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ"(4).

أحمدُ اللهَ على ما أنعم وأعطى وصلّى الله على خيرته من أنبيائه ورُسُله محمدٍ المبعوث للعالمين والمنعوت بـ" وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ"(5) وعلى آله وأصحابه المنتجبين وسلّم تسليما.

لقد حث الرسول الأعظم (ص) على السفر والرحلة بأحاديث كثيرة منها: "سافروا تصحوا" وقال رسول الرحمة (ص) "إغزوا تغنموا، وصوموا تصحو، وسافروا تستغنوا"(6).

وقد صدق الإمام الشافعي (رض) حين قال(7)

تغرّب عن الأوطانِ في طلب العُلى وسافر ففي الأسفار خمسُ فوائد
تفرُّج همٍ، واكتسابُ معيشةٍ وعلمُ وآدابُ وصُحبةُ ماجدِ
فإن قيل في الأسفار ذُل ومحنةُ وقطعُ الفيافي وارتكاب الشدائدِ
فموتُ الفتى خيرُ له من قيامهِ بدار هوانٍ بين واشٍ وحاسدِ

ومن هذا المنطلقَ، أحب السلف الصالح الأسفار والرحلات وحُبِّب إليهم، فمنهم من جعلها همه وهدفه ومنهم من كان سفره للتجارة فقط، ومنهم من كان هدفه السياحة أو طلباً للعلم والمعرفة أو لأسباب سياسية أو دينية أو أسباب أخرى ترد تباعاً.

وأياً كانت دوافع الرحالة، المعلنة منها والخفية، فقد اتصف أغلبية الرحالة – ولو بدرجات متفاوتة– بدقة الملاحظة والوصف والتقصي في تسجيل مشاهداتهم بأمانة وصدق، وقد حرص معظمهم على التمييز بين المشاهدة العينية والرواية عند تسجيل معلوماتهم. لقد كان من بين الرحّالة رجال علم ودين وتجار وجواسيس وآخرون استهوتهم المغامرة ودفعتهم المخاطرة إلى كشف النقاب عن المجهول في الأرض والناس(8).

ومن أشهر الرحّالة المسلمين هو ابن جبير ( 539-614هـ) في رحلته المشهورة "رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك" إذ نقل لنا صوراً حيّة وصادقة عن المدن والمجتمعات الإسلامية في المشرق الإسلامي، وعن عادات السكان وتقاليدهم ونظمهم الاجتماعية وأحوالهم الاجتماعية، وذلك في القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر الميلادي(9).

ويمكن الإشارة هنا إلى أن عدداً كبيراً من الرحالة الأوروبيين قد أسهموا إسهاماً إيجابياً بتقديم معلومات مفيدة ومعرفة بالشعوب غير الأوروبية لم تكن متوافرة من قبل.

ولعلّ عبارة "الرحلة عين الجغرافية المبصرة"؛ لأن الرحلة ليست وسيلة اكتشاف فحسب، بل هي جزء أصيل من حركة الحياة على الأرض أيضاً ولهذا كله يمكن القول: إن الرحلة قد رسخت كل العوامل والمفاهيم التي بُنيت عليها مسألة وحدة البشر، ولتستمر على الأرض، بل لقد فجرَّت في الإنسان المصالح المشتركة التي وثّقت عُرَى هذه الوحدة على الأرض، ومن غير الرحلة ينفرط عقد هذه الوحدة وتتضرر حركة الحياة ومصيرها المشترك.

وكما ذكرنا فإنّ للرحلات أسبابها الإدارية والدينية والتجارية والعلمية والسياسية والسياحة وحب الإطلاع والاستكشاف، فغنيت الآداب العربية بأخبار جمة عن البلدان التي يزورها الحُجّاج في طريقهم فقد كان النابهون من الحُجاج يدونون تجاربهم ومشاهداتهم كي ينتفع منها المسلمون، فكانوا يصفون رحلاتهم تسجيلاً لفضلهم وتشجيعاً لغيرهم(10).

وكان للعرب في الوساطة التجارية البحرية والبرية أثرٌ عظيم فشَهِدَت له تلك المستوطنات والمراكز التجارية في شمال الجزيرة العربية، وعلى طول سواحل شرق أفريقيا وساحل الهند الغربي، وازدهرت على أيديهم الطرق التجارية بين بحار الصين، وآسيا الوسطى، وسواحل بحر البلطيق، والأندلس وشواطئ المحيط الأطلسي، والبحر المتوسط وساحل أفريقيا الشرقي، وجزر المحيط الهندي، وصحاري السودان.

وفي ضوء ما تقدم نسأل ما الذي يغذّي الرحلة ؟إنه الشوق إلى المغامرة واقتحام المجهول وطموح الإنسان في كسب المال والعلم والمجد، فتسهم الرحلة في بناء الحضارة بما تضيفه عليها من علاقة بين الأمم والأفراد(11).

ويظهر لنا في التاريخ العربي الإسلامي ولاسيما في الأدب الجغرافي رحّالة وجغرافيون في القرن الثالث للهجرة أمثال: محمد بن موسى المنجَم، والتاجر سليمان، وسلام الترجمان، وابن وهب القرشي، واليعقوبي وابن خِرداذبه وابن رسته وابن الفقيه وغيرهم.

وفي القرن الرابع للهجرة: أبو زيد البلخي، وابن فضلان، والاصطخري، وقُدَامه بن جعفر، والفتية المغررون، والمسعودي، وابن حوقل، وأبو دُلف والمقدسي والمهلبي وغيرهم.

وفي القرن الخامس للهجرة: البيروني وابن بطلان وأبو عبيد البكري وأبو بكر الطرطوشي.

وفي القرن السادس للهجرة: أبو بكر العربي، والادريسي، وأبو حامد الغرناطي، وأُسامة بن جعفر، وابن جُبير، والهروي، وابن ظفر، والسمعاني، وعبد الواحد المراكشي والرحالة اليهودي بنيامين التطيلي الأندلسي موضوع بحثنا.

وفي القرن السابع للهجرة: البغدادي وياقوت الحموي وابن سعيد المغربي والعبدري وابن رُشيد.

وفي القرن الثامن للهجرة: أبو الفدا، والتيجاني، وابن بطوطة وابن خلدون.

وفي القرن التاسع للهجرة: سليمان بن أحمد بن سليمان المهدي، وعبد الباسط ابن خليل الظاهري وابن ماجد.

وفي القرن العاشر للهجرة: المقّريّ التلمسانيّ والحسن الوزان الغرناطي الفاسي (ليون الأفريقي) وغيرهم.

ومن أهم المصادر التي أغنت صفحات هذا البحث رحلة بنيامين بن يونه التطيلي النباري الأندلسي ( 561-569هـ/ 1165-1173م) ترجمها عن الأصل العبري وعلّق حواشيها، وكتب ملحقاتها عزرا حداد ولا سيما كلمة عباس العزاوي ومقدمة المحقق والمترجم عزرا حداد ورحلة ابن جبير ورحلة ابن بطوطة ومعجم البلدان لياقوت الحموي وصورة الأرض لابن حوقل ونزهة المشتاق في اختراق الآفاق للإدريسي.

فضلاً عن عدد من المراجع منها: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، زكي محمد حسن وأدب الرحلات وأشهر أعلامه العرب ونتاجهم، خضر موسى محمد حمود، وأدب الرحلات حسين محمد فهيم، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، محمد مؤنس عوض، وأعلام الجغرافيين العرب لعبد الرحمن حميدة، وكتاب بغداد في مؤلفات الرحّالة الأجانب، للباحث عبد الجبار ناجي كذلك شبكة الانترنيت بالعربية والإنكليزية والإسبانية (ويكيبيديا).

جاء عنوان البحث "بغداد في رحلة اليهودي بنيامين التطيلي الأندلسي ( 561-569هـ/ 1165-1173م) وصفحاته تكون من مقدمة وثلاثة مباحث مع خاتمة وثبت المصادر والمراجع.

فالمبحث الأول: المشرق الإسلامي في مؤلفات الرحالة الأجانب.

والمبحث الثاني: رحلة بنيامين التطيلي.

والمبحث الثالث: وصف بغداد في رحلة بنيامين التطيلي الأندلسي.

نأمل أن تفتح صفحات هذه الدراسة آفاقاً أوسع للباحثين في دراسة أدب الرحلات عامة ولا سيما كتابات الرحالة الأجانب عن المشرق عامة وبخاصةٍ عن المشرق الإسلامي خلال العصور الوسطى على غرار الباحث عبد الجبار ناجي في كتابه الموسوم "بغداد في مؤلفات الرحّالة الأجانب من القرن التاسع إلى القرن الخامس عشر الميلادي" والباحث محمد مؤنس عوض في كتابه الموسوم "الرحالة الأوروبيون في العصور الوسطى".

المبحث الأول: الشرق الإسلامي في مؤلفات الرحالة الأجانب

لقد دفع الأمم القديمة كالفينيقيين واليونان والرومان على التوسع في معرفة الأرض، والتنقل في البلدان بقصد التجارة والغزوات والسياحة في حين أن العرب كانت لهم دوافع أخرى اختصوا بها لأن رسالة الإسلام التي حملها العرب وغيرهم كانت عالمية لا تختص بمكان.

"الرحلة عين الجغرافية المبصرة" كما ذكرنا، وخلال العصور الوسطى خرج العديد من الرحالة الأوروبيين من قارتهم صوب الشرق إلى الأماكن المقدسة في فلسطين أو إلى بغداد أو إلى مناطق أخرى في قارة آسيا مثل الصين، وغيرها، ومن أولئك الرحالة من كان من الحُجّاج أو من التُّجار، ومنهم من ترك لنا كتاباته عن المناطق التي زارها وذكرياته هناك. وتعّد كتابات أولئك الرحالة مصدراً على جانب كبير من الأهمية ولا سيما أنها تصف

لنا المكان والزمان، والإنسان بعيون أجنبية وافدة على المنطقة، كما تبعد عن الجانب الرسمي الذي نجده في كتب الحوليات (Chronicles) التي كتبها مؤرخو البلاط ممن عمل في قصور الأباطرة والملوك والأمراء(12).

ويمكن القول بأن مؤلفات أولئك الرحالة الأجانب لا يمكن الاعتماد عليها منفردة في الكتابة التاريخية عن أوروبا خلال العصور الوسطى وعلاقتها بالشرق، بل لابد من موازنتها مع المصادر التاريخية الأخرى مثل: المؤلفات الحولية والتقارير الرسمية والآثار والنقوش والنقود إلى غير ذلك من المصادر.

وفي كتابات الرحالة الأوروبيين منذ القرن الرابع حتى منتصف القرن الخامس عشر الميلادي، نجد تبايناً في التصورات، والأوصاف، والتعليقات، ومرجع ذلك إلى اختلاف الانتماء الاجتماعي للرحالة الأجانب وطبيعة عملهم ومستوى ثقافاتهم، وأهداف الرحلات وتأثير البيئة التي عاش بها في نظرته لكل ما شاهده خارج القارة الأوروبية.

ومع تعاظم الظاهرة الدينية خلال العصور الوسطى في الغرب والشرق على حدّ سواء، على نحو جعل البعض يصفها بأنها عصور الإيمان؛ أثر ذلك على أولئك الرحالة الأوروبيين فاهتموا بالجانب الديني ولا سيما الذين زاروا الأماكن المقدّسة لدى المسيحيين في فلسطين، ومن ثم وصفوا الكنائس والأديرة، والمزارات الدينية، وركزوا على أماكن دفن القديسين، شأنهم في ذلك شأن الرحالة المسلمين الذين اهتموا بذكر مزارات كبار شيوخ الصوفية وجانب من سيرهم مما عكس تشابه أسلوب المعالجة عن الكتابة في أدب الرحلة حينذاك.

والجدير بالملاحظة أن كتابات الرحالة الأوروبيين في العصور الوسطى تُعد واحدة من البدايات الحقيقية لظاهرة الاستشراق، أو اتصال أوروبا بالمشرق وتتبع أخباره وثرواته وشعوبه، وهي كتابات كان لها أثرها فيما بعد زيادة معرفة الغرب بجغرافية الشرق، وذلك قبل أن تتحول تلك المعرفة إلى خدمة الحركة الاستعمارية الأوروبية لبلدان المشرق. فضلاً عن ذلك أن تلك الكتابات شجعت اكتشاف العالم الخارجي، ولا سيما القارة الآسيوية ذات التنوع السكاني، والاقتصادي والعقدي وذلك التراث الديني وبخاصة من خلال الأماكن المقدسة للأديان السماوية الثلاثة في طرفها الغربي.

انعكست وظيفة وطبيعة عمل كل رحالة على طريقة تناوله الموقع الجغرافي والجانب الاجتماعي؛ فالبندقي ماركو بولو (1254–1324م) الذي انحدر من عائلة تجارية في المقام الأول اهتم بوصف الثروات والمراكز التجارية في حين انعكس المعتقد الديني على نصوص الرحالة الأوروبيين في تلك العصور، فالرحالة اليهودي موضع دراستنا بنيامين بن يونه التطيلي النباري الأندلسي، وضح ارتباطه بديانته من خلال تناوله وذكر المزارات والجاليات اليهودية المختلطة سواء في بلاد الشام، أو في العراق وفي أماكن أخرى فضلاً عن ذكر أعداد اليهود والمهن التي عملوا بها(13).

ومن المهم الاعتراف بوجود إشكاليات معينة عند دراسة موضوع الرحالة الأوروبيين في العصور الوسطى؛ فالرحلة احتوت في أحيان كثيرة على رؤية منحازة إلى الدين، أو إلى البلد الذي عاش
فيه، ولذلك كانت كتاباتهم خلال ذلك الولاء الديني والوطن، ومن ثم عدم الأخذ بكل ما ورد في مؤلفات الرحالة الأجانب للمشرق الإسلامي من دون إمعان النظر فيها، والتقصي وموازنة مادتها التاريخية مع

ما ورد في المصادر التاريخية المعاصرة زد على ذلك إنها احتوت على أخبار أسطورية بسبب الخيال الشعبي الجامح عند بعض الرحالة الأجانب لا يتفق مع المقاييس العقلية، وذلك فإن مثل تلك الروايات والأخبار لا تعبر إلا عن روح العصر الوسيط التي سادت فيه التصورات الخاصة بالمعجزات والكرامات ولا سيما عند كبار القديسين التي حرص معاصروهم على إحاطة سيرهم بهالات من القداسة، وصدَّقوا كل ما قيل عن قدرات خارقة لهم.

ولا نغفل أن من أولئك الرحالة من أمضى مرحلة زمنية قصيرة في المناطق التي زارها، وكوّن انطباعات سريعة حصل عليها من خلال سؤال الآخرين أو من خلال المعاينة المتعجلة على حين وُجِدَ منهم من مكث أعواماً طويلة فكون خبرة ومعرفة لها شأنها بالمكان والإنسان، ومن ثم جاءت كتابته لها أهميتها الخاصة من بين ما وصل إلينا من مؤلفات أولئك الرحالة، وفي تقديرنا أن الصنف الأول من الرحالة يجب أن تؤخذ كتاباتهم بالاحتياط والحذر، ولا سيما إذا لم يتفق مع التوجه العام لسياق الأحداث أنفسها وروح العصر نفسه.

أننا على الرغم من إدراكنا لأهمية مؤلفات الرحالة الأوروبيين في العصور الوسطى بوصفها مصدراً من مصادر الكتابة التاريخية عن تلك الحقبة، فأن المحاذير السابقة تجعل الباحث يدرك أن فيها إيجابيات وعليها سلبيات معينة، ولذلك تطلب الأمر التعامل معها من خلال الزاويتين معاً.

وعلينا ألاّ ننبهر عند دراسة نماذج من الرحالة الأجانب إلى المشرق الإسلامي خلال العصور الوسطى وحجم إنجازاتهم التي قدموها للفكر الجغرافي الإنساني بصفة عامة، ونغفل سادة علم الجغرافية في ذلك الحين، ونعني بهم الرحالة المسلمين بطبيعة الحال الذين جابوا الآفاق شرقاً وغرباً في قارات آسيا وأفريقيا وأوروبا (بل هناك من يعتقد أنهم اكتشفوا القارة الأمريكية "العالم الجديد" قبل كريستوف كولومبس سنة 1492بعدة قرون) ووصفوا مظاهر السطح، وحياة الشعوب وعاداتها وتقاليدها، والعمائر المدنية والدينية والحربية ولا ريب في أن التاريخ يتذكر أسماء لامعة مثل ابن جُبير والإدريسي
وابن بطوطة وغيرهم، وأن إسهامات الرحالة الأوروبيين في العصور الوسطى سارت في ظلال الإسهام العربي والإسلامي باعتراف المنصفين من باحثي الغرب مثل جورج سارتون وجون رايت وبيزلي(14).

وفي ختام هذا المبحث نعرض في الجدول التالي أهم الرحالة الأجانب الذين زاروا المشرق الإسلامي ولاسيما بلاد الشام في العصور الوسطى الأوروبية وهم من أقطار متعددة فهناك الإنكليزي والروسي، والألماني، والإسباني، والايطالي، واليوناني(15).

أولاً: عدد من الرحالة الأجانب الذين زاروا المشرق الإسلامي خلال القرن الثاني عشر الميلادي

| ت | الرحالة | الجنسية | تاريخ الرحالة |
|---|---|---|---|
| 1 | سايولف | انكليزي | (1102-1103م) |
| 2 | دانيال | روسي | (1106-1107م) |
| 3 | فتيلوس | أوروبي | (1118-1130م) |
| 4 | يوحنا الورزبرجي | ألماني | (1160-1170م) |

| | | | |
|---|---|---|---|
| 5 | أيو فروزين | سيدة روسية | (1162–1172م) |
| 6 | بنيامين التطيلي | إسباني | (1165–1173م) |
| 7 | ثيودريش | ألماني | (1171–1173م) |
| 8 | بتاحيا الراتسبوني | يهودي ألماني | (1174–1187م) |
| 9 | يوحنا فوكاس | يوناني | (حوالي 1185م) |

ثانياً: عدد من الرحالة الأجانب الذين زاروا المشرق الإسلامي خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين

| ت | الرحالة | الجنسية | تاريخ الرحلة |
|---|---|---|---|
| 1 | صموئيل بن شمشون | يهودي أوروبي | (1210م) |
| 2 | بوركهارد من جبل صهيون | ألماني | (القرن الثالث عشر "ت1324م) |
| 3 | اودوريك دي بوردنون | إيطالي | (ت 1330م) |
| 4 | مارينو سانودو | إيطالي | (القرن الثالث عشر) |
| 5 | لودلف فون سوخيم | ألماني | (1336–1341م) |

المبحث الثاني: رحلة بنيامين التطيلي النباري الأندلسي

أن معرفتنا بالرحالة بنيامين التطيلي تعد محدودة وهو في ذلك يشبه غيره من الرحالة الأوروبيين الآخرين على مدى العصور الوسطى، ونعرف أنه الربي بنيامين التطيلي ووالده يدعى يونه Jonah وقد ارتحل إلى المشرق من مدينة تطيلة Tudela وتجول في العديد من المناطق سواءً في أوروبا أو آسيا أو أفريقيا، وعاد أدراجه إلى إسبانيا عام (569هـ/1173م) وقد زار وكتب عن مئات المواقع في أنحاء العالم القديم تقدر بـ(190) موقعاً. مما عكس طول باعه في أمر الرحالة والترحال.

بدأ بنيامين التطيلي رحلاته نحو سنة (561هـ/1165م) أو نحو سنة 4926 من بدء الخليقة بحسب التقويم العبري، وهذا يعني أنه حين بدأ رحلته خارجاً من مدينة تطيلة التابعة لسرقطة Zaragoza التي لم تكن تحت الحكم الإسلامي في الأندلس في ظل العصر الموحدي ( 540–635هـ/ 1445–1233م)، فقد مضى وقت خروجه منها خمسون عاماً على سقوطها في أيدي الممالك المسيحية الإسبانية(16).

كان هدف بنيامين من رحلاته إلى زيارة العالم الإسلامي زيارة تعرف ومحبة، باعتبار العالم الإسلامي وهذا صحيح، كان هو الملجأ والملاذ ليهود شبه جزيرة ايبيريا (إسبانيا والبرتغال) الذين كانوا يشهدون أياماً سوداً في كل منطقة ينتهي فيها الحكم الإسلامي، ويُعّد العالم الإسلامي هو الملجأ والملاذ الآمن ليهود سائر أوروبا في العصور الوسطى الأوروبية ( 476–1492م) الذين كان الأوروبيون يعاملوهم معاملة الأنعام، وينظرون إليهم نظرة ملؤها الكراهية والاحتقار، ولكن إذا كان التعرف على العالم الإسلامي هو هدفه، فلماذا لم يتجه برحلته جنوباً؛ ليجول في شبه الجزيرة الايبيرية؟ ولماذا لم يعبر بحر الزقاق (جبل طارق)؛ ليصل إلى طنجة أو سبته في المغرب الأقصى، ثم يتجه طريقه عبر المغرب الإسلامي إلى مصر فسائر أنحاء العالم الإسلامي؟ ألم يكن هذا

الطريق يبدو منطقياً أكثر من اتجاهه شمالاً إلى أوروبا (إيطاليا) فالدولة البيزنطية، ليهبط بعد ذلك جنوباً إلى سائر بلاد العالم الإسلامي التي زارها، أو قال إنه زارها، ثم يتجه إلى الصين، ليعود إلى شواطئ الهند فسواحل شبه الجزيرة العربية، ثم يعبر البحر الأحمر ليصل إلى أسوان، ويستمر هابطاً مع نهر النيل؛ ليصل إلى القاهرة، والفسطاط، ويزور صحراء شبه جزيرة سيناء، ثم يعود إلى قبرص وبعدها يصل إلى صعيد مصر،ثم يرجع إلى الفسطاط وبعدها يصل إلى الإسكندرية ومنها إلى صقلية في البحر المتوسط(17).

لماذا هذا الطريق الذي لا يبدو أنه الأسهل، ثم لماذا تردده أكثر من مرة على مواضع بأعيانها في مصر التي قطعها من الشمال إلى الجنوب ومن الجنوب إلى الشمال أكثر من مرة؟

يمكن الإجابة عن هذه الأسئلة؛ لأن رحالتنا بنيامين التطيلي قد تخلى عن الاتجاه برحلته جنوباً إلى داخل شبه الجزيرة الأيبيرية، فقد أجمع المؤرخون الأوروبيين ولاسيما اليهود أن حضن الدول الإسلامية في العصور الوسطى الإسلامية (571-1453م) كان هو الحضن الوحيد الأكثر أمناً لأهل الذمة ولاسيما اليهود في العالم.

وفي هذا المقام نشير إلى أن الرحالة العبري بنيامين التطيلي زار القدس في سنة ( 564هـ/1168م) وزار الحائط الغربي، ولكنه يستغرب بقوله: "ويسميه اليهود باب الرحمة، علماً بأن باب الرحمة هذا يقع إلى الشرق من قبة الصخرة المشّرفة" ويزداد على ذلك أن الرحالة لم يقل إنه زار الحائط أو صلّى عنده.

ومن معطيات الأدب الجغرافي تقود إلى حقيقة تضاؤل الحضور اليهودي في فلسطين عبر العصور الإسلامية، وهذا أمر يتضح من خلال ما ذكره العديد من الجغرافيين والرحّالة، وفي هذا المجال يمكن القول إن الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي قام برحلته إلى فلسطين، فزار القدس، وغيرها من المدن الفلسطينية في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، وكان يسعى إلى تدوين إحصاء اليهود في فلسطين، وذُكِرَ أنه كان في القدس يهودياً واحداً آنذاك(18).

وبهذه الحقيقة التي عبّر عنها هذه الرحالة اليهودي يمكن القول: إنه إذا قام اليهود في أجزاء من فلسطين عدداً محدوداً من السنين، فالعرب أقاموا فيها إقامة مستمرة من دون انقطاع في حين انقطع اليهود عنها قروناً طويلاً جداً.

يذكر مترجم الرحلة الباحث عزرا حّداد في مقدمته أن بنيامين أُعِجبَ بما شاهده في وادي الرافدين من جاليات يهودية كانت يوماً تنعم بالطمأنينة في ظل الخلافة العباسية السمحاء، وقد استغرقت رحلته ثماني سنوات ( 561-569هـ/ 1165-1173م) وطبعت رحلته للمرة الأولى باللغة العبرية عام 1543م في مطبعة سونسيوني في القسطنطينية، وبعدها طبعت طبعات أوروبية كثيرة، وقد اعتمدنا في هذه الدراسة على طبعة وتحقيق وترجمة عن الأصل العبري لعزرا حدّاد، بغداد 1945.

إن ما كتبه بنيامين عن مشاهداته في رحلته إلى ديار الإسلام في القرن السادس للهجرة لها قيمة تاريخية فهي معدودة من أقدم الرحلات المعروفة، وقد جاب مؤلفها الغرب والشرق ودوّن ما شاهده تدويناً تؤيده أغلب المصادر التي لدينا عن الحالة التي كانت سائدة في ذلك العصر، ومع أن نزعته جعلته يُعنى بأحوال أبناء طائفته؛ إذ قدّم لنا عن العراق وسائر البلاد الإسلامية الخبر الوافي، والوصف المسهب بقدر ما كان يستطيعه

أوروبي يزور الشرق الإسلامي للمرة الأولى ولاسيما خلال الحروب الصليبية، فلم يكن باستطاعة رجل غربي أن يكتب عن الشرق كل ما شاهده، ولم يقدر أن يمدح نظاماً، أو يلهج بذكر عقيدة إلا بقدر، فللرحلة ظروف خاصة، وربما فاتته أمور كثيرة، إلا ما استطاع أن يتوصل إليه من معلومات فيما ذكره من مشاهدات ومسموعات لها قيمة تاريخية(19).

الرواد اليهود في العصور الوسطى(20)

إن اليهود في الأندلس والمشرق، خالطوا العرب، والمسلمين في عصورهم المختلفة، وتأثروا في تفكيرهم، واقتبسوا لغتهم، وتحلّوا بآدابهم، وضربوا بسهم وافر في جميع نواحي نشاط الفكر العربي، لذا لم تكن الرحلات البعيدة غريبة عنهم، على أنه من الحق أن نشير هنا إلى أن الدوافع التي كانت تحدو باليهودي الأوروبي على ترك دياره، والغرب في طول الأرض، وعرضها لم تكن كلها اختيارية، ولم تكن كلها لمجرد الإطلاع أو الوقوف على أحوال الأقطار المختلفة، بل كانت هناك عدة عوامل أساسية تدفعه طوعاً أو كرهاً إلى الإكثار من الترحال والتجوال منها:

1 -العامل السياسي: وهو من أهم عوامل الهجرة والرحلة والسفر، لأن اليهودي الأوروبي خلال العصور الوسطى المظلمة، كان ملكاً لأمير الإقطاع يصنع به ما توحي إليه رغبته ومصلحته، ولم تكن له مطلق الحرية في الإقامة، والسكن حيث يشاء، ولم يكن مطمئناً على سلامته واستقراره في موطنه ومسقط رأسه، بل كان يجد نفسه بين فترات متقاربة أو متباعدة، حيال قرار مؤلم خطير يجب أن يتخذه بمنتهى السرعة– وهو أن يتخير بين أن يترك دينه ومعتقده باعتناق ديانة السلطة القائمة، أو أن يبارح موطنه ويحمل عصا الترحال، تاركاً خلفه ما يملكه من حطام دنياه الضّيقة.

2– العامل الديني: يتمثل بالرغبة الملحة التي كانت تدفع بأتقياء اليهود إلى ركوب الأهوال واقتحام المخاطر لحج بيت المقدس، والتبرك بقبور الأنبياء ومقامات الصالحين، فحج بيت المقدس، وإن لم يعد فرضاً دينياً على اليهودي منذ خراب هيكل القدس في القرن الأول الميلادي، فإن اليهودي التقي كان يشعر بلهفة متأججة إلى زيارة أماكن التوراة ومهبط الوحي ومثوى الأنبياء، غير آبه بالحقيقة المرة، وهي كونه لا يتمتع بحماية سلطان، أو رعاية أمير ولاسيما خلال الحروب الصليبية. وكان أن دوّن عدد من هؤلاء الحجاج ما شاهدوه في البلاد المقدسة والأقطار المؤدية إليها، فتركوا للأجيال المتأخرة تراثاً ممتعاً من كتب السياحة والرحلات.

3– العامل الاقتصادي: وهو من أهم عوامل الهجرة والرحلة؛ ذلك لأن القوانين والقيود التي كانت تُحرّم على اليهودي الأوروبي في العصور الوسطى الأوروبية امتلاك العقار والاشتغال بالزراعة، قد دفعته مرغماً إلى أحضان التجارة والشؤون المالية، ولهذا وجدنا التاجر اليهودي في الموانئ والثغور في الشرق والغرب، يجوب الأقطار البعيدة قادماً من أوروبا يحمل مختلف السلع والبضائع للبيع والمقايضة. ثم يعود إليها بنتاج الشرق الغني بخيراته ومحاصيله، فهذا ابن خرداذبه يصف هؤلاء التجار أصدق وصف وأدقه إذ يقول " ... إنهم يسافرون بين الشرق والغرب، ويحملون من فرنجة الخدم والغلمان والجواري والديباج والخّز الفائق والفراء والسمور ويركبون البحر من فرنجه ويخرجون بالفرما، أو يحملون تجارتهم على الظهر إلى القلزم. ثم يركبون البحر

الشرقي من القلزم إلى جدة والحجاز، ثم يمضون إلى السند والهند والصين، فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدار صيني وغير ذلك. ويرجعون إلى القلزم. ثم يتحولون إلى الفرما.. ويركبون البحر الغربي فربما عدلوا بتجارتهم إلى القسطنطينية فباعوها للروم، أو صاروا بها إلى بلاد الفرنجه فباعوها هناك، وإن شاؤوا حملوا تجارتهم في البحر الغربي، فخرجوا بانطاكية، فكانوا يتكلمون العربية والافرنجية والفارسية والروسية. وهم تجار اليهود الذين يقال لهم الرهدانية أو الراذانية".

ويذكر ابن الفقيه أن المسلمين كانوا يطلقون على هؤلاء التجار من اليهود اسماً مجرداً هو "تجار البحر"(21).

هذه العوامل التي ذكرناها وغيرها أنجبت عدداً من مشاهير الرواد اليهود في العصور الوسطى الأوروبية؛ فكانت حكايات سياحاتهم، وكتب رحلاتهم من أهم المصادر التاريخية لتلك العصور وجغرافيتها ليس لليهود حسب بل للعالم المعروف آنذاك(22).

ومن أشهر الرواد الرحالة اليهود إلى المشرق الإسلامي

1- الداد الداني: خرج في حدود سنة 880م من موقع ما في شرقي إفريقية يحاذي عدن (ربما كان الصومال) في رحلتين زار خلالهما الحبشة ومصر والقيروان وبلاد المغرب وإسبانيا (الأندلس)، ثم زار اليمن وعرّج على البحر الهندي، وخليج البصرة، فبغداد، ومنها عادَ إلى إفريقية ثم إلى إسبانيا.

2- أبو الحسن يهوذا بن صموئيل اللاوي الطليطلي (1085-1140م) الشاعر الفيلسوف الكبير، خرج من مسقط رأسه طليطلة يريد حج بيت المقدس، وهو يومئذٍ تحت الاحتلال الصليبي احتلال الصليبيين، فزار مصر والشام، وتوفي عند أسوار أورشليم، وفي ديوانه قصائد تعدّ من عيون الشعر العبري الأندلسي عبر فيها عن الحنين إلى زيارة الأماكن المقدسة في فلسطين.

3- أبو إسحق إبراهيم بن مئير بن عزرا الطليطلي الأندلسي: ولد في طليطلة سنة 1093م، وتوفي في روما سنة 1167م. كان شاعراً كبيراً وفيلسوفاً معروفاً ومفسراً عظيماً. قام برحلة علمية طويلة زار أثناءها مصر وفلسطين والعراق، ورودس وإيطاليا وانكلترا، فكان في لندن سنة 1157م، وفي رواية أنه زار الهند أيضاً.

4- بنيامين بن يونه التطيلي النباري الأندلسي (موضوع بحثنا).

5- فتاحية الرتسبوني أو الرجنسبرجي: قام برحلته إلى الشرق الإسلامي براً في حدود سنتي ( 1175-1185م) عن طريق براغ وبولونيا وكييف والقرم فالقوقاز، ومن ثم عرج على أرمينيا والفرات والموصل، فبغداد وإيران وسوريا وفلسطين واليونان، فكانت زيارته لمدينة بغداد على ما يظهر في زمن الخليفة الناصر لدين الله العباسي، وتعدّ رحلته من الوثائق المعروفة.

6- يعقوب بن نثيال كوهن: زار فلسطين قبيل استيلاء صلاح الدين الأيوبي على القدس سنة 1183م. وترك رسالة قيمة في رحلته.

7- يهوذا بن سليمان الحريزي الطليطلي ( 1170-1230م) الشاعر الكبير ناقل الكتب المهمة من العربية إلى العبرية، ومؤلف كتابات "مقامات الحريري" العبرية التي ضارع مقامات الحريري العربية. قام برحلة طويلة زار خلالها مصر وفلسطين والشام والعراق، ووصف مشاهداته وذكر العظماء والعلماء الذين قابلهم في المدن التي زارها.

8- يعقوب رسول الربي بحيئيل الباريسي: خرج من فرنسا سنة 1238م، في رحلة طويلة استغرقت ست سنوات زار خلالها فلسطين سوريا والعراق، فالأهواز، ووضع رسالة قيمة عن رحلته.

هؤلاء الرحالة الرواد وأمثالهم كثيرون من الذين تجشموا مشاق السفر وركبوا متن الأخطار والأهوال في تلك العصور المظلمة، وخلفوا لنا عن رحلاتهم تلك رسائل ثمينة تعد من أوثق المصادر التاريخية بعد مقارنتها بالمصادر التاريخية العربية.

والملاحظ هنا أن تيار الرحلات والأسفار اليهودية خلال العصور الوسطى، كان يتجه دائماً من الغرب إلى الشرق، وقلّما نعرف عن رحالة من يهود الشرق رحل إلى أوروبا للدرس والإطلاع أو التجارة باستثناء بعض العلماء الذين كانوا يرحلون إليها للتعليم في مدارسها، ولهذه الظاهرة أسباب متعلقة بالعوامل التي ذكرناها سابقاً(23).

المبحث الثالث: وصف بغداد في رحلة بنيامين التطيلي

خرج الرحالة الإسباني بنيامين من مسقط رأسه تطيلة التابعة لإقليم سرقسطة في الشمال الشرقي من إسبانيا، فخرج منها باتجاه سواحل فرنسا الجنوبية، وكانت أوروبا تعيش ظروف الحروب الصليبية واستمرار الاستعدادات لإرسال الحملات إلى بلاد الشام ثم واصل رحلته حتى بلغ روما وهي في عزّ أيامها، وقمة سلطتها فأطلع على آثارها القديمة، وقصورها وكنائسها، واستمر في تجواله حتى بلغ القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية الشرقية، فأدهشه ما شاهده من قصورها وقلاعها وتجارتها الواسعة وكنائسها ووقف عند آيا صوفيا يصور ما شاهده من أبيات الفن المعماري(24).

ومن ثم ركب البحر حيث أطل على الشرق الإسلامي وهو الهدف الرئيسي لرحلته، فراح يتنقل في المدن العامرة والقرى الزاهرة في سوريا ولبنان، ومنها حج بيت المقدس في ظل الاحتلال الصليبي، فصار يتنقل في نواحي فلسطين، ويدَّون ما زاره من قبور وأضرحة الأتقياء ومقامات الصالحين، ثم مر بغور الأردن، وأتجه شمالاً نحو بحيرة طبرية ومنها عرج نحو أعالي الفرات بطريق تدمر وبعلبك ودمشق، وأخذ يتنقل بين دجلة والفرات حتى بلغ الموصل، ثم ألقى عصا الترحال في بغداد عاصمة الخلافة العباسية ( 565هـ/1169م) فأعجب بما شاهده من عمرانها، وأسهب في وصف قصور خلفائها ومعاهدها ومارستاناتها، ولاغرو، فهو أول رحالة أوروبي من غير المسلمين، جاوز الفرات وبلغ بغداد وقد أعجب بنيامين بصورة خاصة بما شاهده في وادي الرافدين من جماعات يهودية كانت يومئذٍ

تنعم بالأمن والأمان في ظل الدولة العباسية، في حين كان يهود أوروبا لا يعرفون سوى الاضطهاد الديني والاقتصادي، فراح لسانه يلهج بمدح خليفة المسلمين المستنجد بالله العباسي

(555هـ-566هـ/1160-1170م) قائلاً(25) " ..... أمير المؤمنين المعروف بالتقوى والاستقامة، يطلب الخير لجميع رعيته" ويصف موكبه في طريقه إلى الجامع؛ لإقامة فريضة صلاة العيد، وابتهاج الرعية برؤية طلعته الميمونة، فيسجل هنا فهم له وتهليلهم وتكبيرهم". ثم يتحدث عن المارستان حديث شاهد عيان دقيق الملاحظة.

إن ما يرويه بنيامين عن الخليفة العباسي المستنجد بالله من صفات، يدل على ما كان له من مقامٍ سامٍ في قلوب يهود بغداد. وتحدثنا بعض المصادر التاريخية أنه كان من خيرة الخلفاء، أزال المكوس والمظالم وكان شديداً على أهل العبث والفساد، وانه حل المقاطعات وأعادها إلى الخراج، وكان حليماً عادلاً ثاقب الرأي حازماً، له إلمام بعلم الفلك وغيرها من العلوم والفنون، فكانت أيامه كلها أفراحاً(26).

ويحدثنا رحالتنا بنيامين عن مدينة بغداد "بغداد المدينة الكبرى، كرسي مملكة الخليفة أمير المؤمنين الإسلامي، يدين له بالطاعة ملوك المسلمين قاطبة، فهو عندهم بمقام البابا عند النصارى"( 27) ويختم حديثه عنها "وتبلغ استدارة بغداد عشرين ميلاً، وتمتد حولها الرياض مما لا مثيل له في جميع العراق. ولها تجارة واسعة يقصدها التجار من جميع أقطار العالم للبيع والشراء، وفي بغداد عدد كبير من العلماء الفلاسفة والمتفننين في جميع العلوم والمعارف والسحريات"(28).

وقد اختلفت المصادر الجغرافية وتضاربت آراء الأقدمين في معنى بغداد، قال ياقوت الحموي(29) "إن معنى بغداد "باغ" بستان تعود لرجل فارسي كان أيام الملك شيروان" في حين من رأى بعضهم أنها مصحفة من "بغ" وهو اسم صنم و(داد) ومعناها هدية. وقيل: إن لفظة بغداد من أصل آرامي "بيت كداد" ومعناها بيت الغنم أو الحظيرة على أنه من الثابت أن قرية تدعى بغداد كانت قائمة على نهر دجلة منذ ايام البابليين، وفي أيام الفتح العربي الإسلامي للعراق غزا المثنى بن حارثة الشيباني سوقاً للفرس على دجلة كانت تُدعى "سوق بغداد" وذلك قبل أن يبني الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور مدينته المستديرة دار السلام في ( 132 ) سنة، وقد اختطها عام (145هـ/762م)، وانتقل إليها عام (149هـ/766م) ثم تعاقبت عليها الحوادث إلى أن استولى عليها هولاكو المغولي سنة (656هـ/1258م) . ومن أسمائها الزوراء أي العوجاء إشارة إلى أن القبلة في بغداد لا تتفق مع أي من الجهات الأربع.

ويجب أن نشير هنا إلى أن الرحالة بنيامين هو أول رحّالة أوروبي يذكر بغداد بلفظتها الصحيحة المعروفة، في حين أن أغلب من زارها من الرواد الأوروبيين صحفوا لفظتها بأشكال مختلفة منها: Baldak و Baudas و Bagdet و Maghdah وبابل الجديدة(30).

ويواصل رحالتنا بنيامين وصف قصر الخلافة في بغداد قائلاً :"وقصر الخلافة في بغداد واسع الأرجاء، تُنيف استدارته على ثلاثة أميال. تتوسطه روضة غناء فيها أشجار مثمرة وغير مثمرة من كل صنف، وفيها من الحيوان ضروب كثيرة، وفي الروضة أيضاً بحيرة واسعة يأتيها الماء من حدقل (دجلة) يخرج إليها الخليفة للصيد والنزهة، وقد جمعت فيها أصناف الطير والسمك لرياضة الملك ووزرائه ورجال بطانته وضيوفه"(31)، ثم يواصل الرحالة بنيامين تسجيل ملاحظاته عن مجلس الخليفة العباسي قائلاً: "وفي هذا القصر يعقد الخليفة العباسي الكبير "الحافظ" مجلس بلاطه، وهو حسن المعاملة لليهود، وفي حاشيته عدد منهم، وهو عليم بمختلف اللغات

عارف بتوراة موسى، يحسن اللغة العبرية قراءة وكتابة، وهو كذلك على جانب عظيم من الصلاح والتقوى يأكل من تعب كفيه. إذ يصنع الشال المقصب ويدمغه بختمه فيبيعه رجال بطانته من السراة والنبلاء فيعود عليه بالأموال الوافرة.وهو موصوف بالتقوى والصدق والاستقامة وطلب الخير لجميع رعيته"(32).

ونعتقد أن بنيامين قد بالغ في وصف الخليفة العباسي المستنجد بالله ( 555–565هـ) أو ممن سبقوه بهذه الأوصاف من معرفته بمختلف اللغات وعارف بالتوراة ويحسن اللغة العبرية ويأكل من تعب كفيه. كذلك لم نجد في المصادر التاريخية لقب "الحافظ" بين الألقاب التي كان يحملها خلفاء بني العباس، ومن المحتمل أن يهود بغداد كانوا يلقبون الخلفاء بالحافظ؛ لكونهم يحفظون القرآن الكريم.

ويشير بنيامين إلى الصراع على الخلافة ومبدأ ولاية العهد "وجميع الأمراء ومن بيت الخلافة معتقلون في قصورهم الخاصة وراء سلاسل الحديد، وعليهم الحراس الموكلون بهم لكي لا يعلنوا العصيان على كبيرهم الخليفة. فقد حدث لأحد أسلافه أن تمرد عليه أخوته وبايعوا لأحدهم بالخلافة. ومن ذلك اليوم جرت العادة بالحجر على أفراد بيت الخلافة كافة لكي لا يتمردوا على سيد البلاد. غير أن كلاً من هؤلاء يعيش في قصر أنيق، ويمتلك المدن، والضياع تدر عليه المال الوافر، وعليها الوكلاء والأمناء، وهكذا يقضي الأمراء أيامهم بالقصف واللهو"(33) وعند مقارنة هذا الوصف في رحلة ابن جبير الذي زار بغداد سنة ( 580هـ/1184م) أي بعد (15) سنة في عهد الخليفة العباسي أحمد الناصر لدين الله بن المستضيء نجد يقول "....، لأن جميع العباسيين في تلك الديار معتقلون اعتقالاً جميلاً لا يخرجون ولا يظهرون، ولهم المرتبات القائمة بهم"(34).

يعود بنيامين إلى وصف قصر الخلافة "وفي قصر الخلافة من الأبنية ما يحير العقول. ففيه الرخام والأساطين المزوقة بالذهب المزينة بالحجارة النادرة المنقوشة بالريازة البديعة تكسو الحيطان. وفي القصر كنوز وافرة وخزائن طافحة بالذهب والثياب الحرير والجواهر الكريمة(35).

وقد ورد هذا الوصف عند عدد من الرحالة الأجانب والمسلمين في العصور الوسطى عن الخلفاء وقصورهم ومواكبهم من القصر إلى المسجد واحتفاء الناس بهم، فيشير بنيامين إلى ذلك "فإذا ما دخل الجامع، يرتقي منبراً من خشب، فيشرع في إلقاء خطبته على الجماهير، ويفسر لهم أحكام شريعتهم، ثم ينهض كبار المسلمين، فيرتلون الدعاء له، ويشيدون بعظمته وفضله، فيهتف الجميع "آمين" ثم يمنحهم مباركته ويؤتى له بجمل ينحره؛ وهذا هو قربان العيد عندهم. فيوزع اللحم على العظماء والأمراء، والسعيد منهم من يذوق أضحية خليفته"(36).

وبعد هذا الإسهاب في ذكر الخليفة العباسي وقصوره وموكبه يعود إلى وصف مدينة بغداد، وأهم مرافقها الخدمية ولاسيما الصحية قائلاً "ويقوم على الجانب الغربي من مدينة بغداد بين نهر دجلة ونهر آخر يأتي من الفرات بناء المارستان وهي مجموعة من البنايات الواسعة، يأوي إليها المعوزون من المرضى رغبةً في الشفاء ولهذا المارستان قوامون من الأطباء يبلغ عددهم الستين طبيباً يعالجون المرضى ويقدمون لهم الأدوية، والخليفة يجهزهم بما يحتاجون إليه من بيت المال.

وفيها أيضاً بناية تدعى "المارستان" يأوي إليها المجانين المغلوبين على عقولهم بتأثير حرّ القيظ الشديد! والأطباء يقيدونهم بالأغلال حتى يتوبوا إلى سابق رشدهم. ويعيشون مدة مكوثهم فيها بنفقة الخليفة، ويقوم أطباء

الخليفة بتفقدهم مرة في كل شهر، فيسرحون من عاد إلى الصواب منهم، ليعود إلى أهله. وتشمل خيرات الخليفة كل من أمَّ بغداد من المرضى والمجاذيب، فالخليفة جزيل الإحسان، همه عمل الخير"(37).

والمصادر التاريخية تذكر أنه كان في بغداد ايام رحلة بنيامين مارستانات (مستشفيات) متعددة. منها البيمارستان الصاعدي والمارستان المقتدري، وكان يقع في باب الشام، وبيمارستان السيدة أم المقتدر بسوق يحيى على نهر دجلة، ومارستان الوزير ابن الفرات، ومارستان عز الدولة، وكان يقع عند الجسر الذي على دجلة(38).

أما المارستان الذي يذكره بنيامين فهو المعروف بالمارستان العضدي كبرى مستشفيات بغداد، الذي كان يقع بين محلة باب البصرة ومحلة الشارع أنشأه الأمير بجكم أيام حكمه ببغداد بناء على إشارة الطبيب سنان ثابت بن قره (329هـ/641م)، ثم أتمه عضد الدولة عام ( 368هـ/966م) وافتتحه سنة ( 371هـ/981م) ورتب فيه الأطباء والمعالجين والخزان والبوابين والوكلاء والحراس، وعيّن له أربعة وعشرين من أمهر الأطباء في البلاد من مختلف الملل. وقد زار الرحالة ابن جبير بعد بنيامين بمدة (15) سنة، وروى كيف أن الأطباء يتفقدونه كل يوم اثنين وخميس ويطالعون أحوال المرضى فيه، ويرتبون لهم أخذ ما يحتاجون إليه من الأدوية والأغذية(39).

وكان من أهم أهداف رحلة بنيامين هو زيارة بيت المقدس وتتبع أحوال اليهود في كل بقعة من بقاع العالم الإسلامي في العصور الوسطى التي يمر بها، أو يزورها، والآن يصف لنا أحوال جاليته في بغداد ويقول "ويقيم ببغداد نحو أربعن ألف يهودي. وهم يعيشون بأمان وعز ورفاهية في ظل أمير المؤمنين الخليفة. وبينهم عدد من كبار العلماء ورؤساء المثيبة وعلماء الدين. ولهم في بغداد عشر مدارس مهمة. ورئيس المدرسة الكبرى هو صموئيل بن علي الرباني والغاؤون رأس مثيبة "غاؤون يعقوب" وهو ينتسب إلى سبط لاوي من آل موسى النبي(ع)"(40).

ويواصل الرحالة بنيامين ذكر أشهر العلماء ومدراء المدارس والأساتذة الذين يعرفون بالمعتكفين الذين كان واجبهم النظر في مصالح أبناء طائفتهم "وأما رئيس المدرسة الثانية فهو أخوه شيخ اللاويين ونائب رأس المثيبة، ورئيس المدرسة الثالثة ر. دانيال ورئيس المدرسة الرابعة الحّر العازر. ورئيس المدرسة الخامسة ر. إلعازر بن صمح رأس المجمع العلمي، ويرتقي نسبه إلى صموئيل النبي. وقد اشتهر هو وأخوته بالتجويد ورخامة الصوت والترتيل على الطريقة التي كان يرتل بها أجدادهم اللاويين في بيت المقدس. ورئيس المدرسة السادسة ر. حسداي الملقب بفخر الأحبار. ورئيس المدرسة السابعة ر. حجاري. ورئيس المدرسة الثامنة ر. عزرا صاحب سر المثيبة. ورئيس المدرسة التاسعة ر. إبراهيم ويُكنى بأبي طاهر. ورئيس المدرسة العاشرة والختامية (السيوم) ر. زكاي بن بسمتناني.

وهؤلاء الأساتذة العشرة يعرفون بالمعتكفين لا عمل لهم غير النظر في مصالح أبناء طائفتهم. ويقضون بين الناس طول أيام الأسبوع، كل في مدرسته، خلال نهار الاثنين حيث يجتمعون في مجلس كبيرهم رأسه مثيبة (غاؤون يعقوب) للنظر في شؤون الناس مجتمعين(41).

ويستمر الرحالة بنيامين بذكر بقية علماء اليهود ورتبهم في بغداد وعلاقتهم مع الخليفة فيقول: "أما رئيس هؤلاء العلماء جميعهم، فهو الربي دانيال بن حسداي الملقب "سيدنا رأس الجالوت" ويسميه المسلمون "سيدنا ابن داود" لأن بيده وثيقة تثبت انتهاء نسبه إلى الملك داود. وهو يستمد سلطانه من كتاب عهد يوجه إليه من الخليفة أمير المؤمنين عملاً بالشرع المحمدي" ويواصل حديثه عن موكب رأس الجالوت عند خروجه، وبعض الأعياد والمهرجانات اليهودية في العراق، ثم يبين عدد العلماء والكنائس (البيع) في بغداد فيقول: "وبين يهود بغداد عدد كبير من العلماء وذوي اليسار، ولهم فيها ثماني وعشرون كنيسة. قسم منها في جانب الرصافة، ومنها في جانب الكرخ على الشاطئ الغربي من نهر حدقل (دجلة) الذي يمرّ في مدينة فيشطرها شطرين(42).

هكذا سّجل الرحالة الأندلسي بنيامين التُّطيلي النباري ملاحظاته عن مدينة بغداد بعامة ولاسيما عن جاليته اليهودية، ولا نعرف بالضبط كم استغرقت رحلته في العراق؟ ولكن نعرف أنه زارها عام ( 565هـ/1168م) وأنه توفي عندما عاد إلى مدينته تطيله في إسبانيا سنة (569هـ/1172م) بعد أن زار عدد من الأماكن والمواقع في ثلاث قارات أوروبا وآسيا وأفريقيا تقدر بـ( 190) علماً جغرافياً وتحديداً في العراق زار الأماكن والمواقع الآتية(43):

الموصل، الرحبة تقع على شاطئ الفرات بين الرقة وعنه وهي غير رحبة الشام، فرقيسياد (كركميش) تقع في أعالي الفرات، الأنبار، حربي تقع على نهر الدجيل بين بغداد وتكريت، بغداد وهي من أكثر المدن وصفاً وتوضيحاً وبواقع ثمان صفحات ( 131–139)، جاهيجان (زريران) ربما هي السيافية في الجانب الغربي من نهر دجلة بأزاء المدائن، خرائب بابل (بابل الكبرى القديمة)، الحلة، برس نمرود أو برج التفرقة (زقورة بابل)، نفاحه (نفاح) أو نفاطة بجوار هيت ربما عقله نفاحه، مرقد حزقيال (الكفل)، عين شفاثه، كفر الكرم ربما عين التمر، نهر ريجة قريبة من الكوفة، الكوفة، سورا من مدن الفرات تقع على شط النيل، شفياثيب (الشافية) من قرى واسط من ناحية نهر جعفر بين واسط والبصرة ويقال لها شيفية أيضاً، واسط، البصرة، نهر سمره تقع في أرض ميسان وفيها قبر العزير والعمادية وهي أقصى شمالي العراق وتبعد 168 كم عن الموصل.

الخاتمة

وخلاصة القول عن أهمية رحلة بنيامين والنتائج التي توصل البحث إليها(44):

1– ركزت الرحلة على تتبع الحياة العامة والخاصة للجاليات اليهودية في الأماكن والمواقع التي زارها بنيامين في العالم الإسلامي ولاسيما في بلاد الشام وبالذات فلسطين والعراق خلال القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي والمجالات التي عملوا بها وموازنته بين عناصرهم في داخل الوجود الصليبي في بلاد الشام وبين تلك التي عاشت تحت السيادة العربية الإسلامية، وقرر قلة أعداد اليهود في بيت المقدس بسبب منع الصليبيين اليهود من دخول المدينة لأعتقادهم أن وجودهم يؤدي إلى تدنيس قدسيتها، وهكذا؛ ففي حالة وجود عناصر

يهودية فمرجعه إلى كونهم حجاجاً أو أُناساً قد حصلوا على موافقة خاصة لإنجاز بعض الأعمال ودفعوا رسوماً من أجل الموافقة على زيارة المدينة المقدسة.

2- كثرة أعداد الجاليات اليهودية التي عاشت في كنف الدول الإسلامية عامة ولاسيما في بلاد الشام، إذ بلغ عدد اليهود في دمشق ثلاثة آلاف يهودي وفي حلب ألف وخمسمائة يهودي وفي بغداد (40.000) أربعين ألف يهودي وتعليل ذلك لحسن المعاملة التي عامل بها المسلمون اليهود الذين عاشوا في أمن وسلام، ولم يتعرضوا للاضطهادات الدموية التي نكبوا بها في مطلع الحروب الصليبية.

يتضح ذلك على مدى تسامح الإسلام مع أهل الذمة من النصارى واليهود وبصورة تغاير سياسة الصليبيين التي اتسمت بالتعصب الشديد ضد كل ما هو غير مسيحي.

3- أفادت الرحلة في إلقاء الضوء على الخريطة العقدية في العالم الإسلامي، ولاسيما بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية والمشرق الإسلامي في ظل الدولة العباسية، فأشارت إلى عناصر الإسماعيلية النزارية وإلى الدروز وعناصر الهيئات الدينية الحربية الصليبية كالاسبتارية والداوية.

4- حوت رحلة بنيامين الأندلسي على عدد من الإشارات الاقتصادية ومن أمثلة ذلك تناوله لمدن الساحل الشامي المزدهرة على المستوى التجاري وذكر مدينة صور بأنها لا نظير لها في العالم ووصفها بالاتساع، وأن التجار كانوا يقدمون إليها من أنحاء العالم كافة كذلك أشار إلى مدينة عكا العاصمة التجارية لمملكة الصليبيين وأن لها ميناءً كبيراً ترسو عنده السفن المتجهة إلى بيت المقدس فضلاً عن وصفه لمدينة بغداد بأن لها تجارة واسعة يقصدها التجار من جميع أقطار العالم للبيع والشراء.

5- كذلك أشارت الرحلة إلى الكوارث الطبيعية ،وفي مقدمتها الزلازل في العالم الإسلامي، ولاسيما في بلاد الشام في ذلك العصر وفي أماكن أخرى، وكان لها الأثر الكبير على المنازل وسُكانها على حدٍّ سواء وذكر أنها أهلكت عشرين ألفاً من سكان طرابلس حاضرة شمال لبنان وهذا نوع من المبالغة في مثل هذه الأرقام؛ لتعذر وجود إحصاءات علمية دقيقة في ذلك الوقت، ولكن مثل هذه الأرقام تكشف لنا حجم الكوارث الطبيعية.

**هوامش البحث**

1- سورة النبأ الآية: 6 و7.

2- سورة الكهف الآية: 33.

3- سورة الشعراء الآية 149.

4- سورة غافر الآية: 82.

5- سورة الأنبياء الآية: 107.

6- حديث نبوي شريف أخرجه أحمد في المسند ط. دار الفكر جـ2، ص380 نقلاً عن مقدمة المحقق محمد عبد الرحيم؛ رحلة ابن بطوطة جـ1 جـ2، مؤسسة الكتب الثقافية ودار الفكر بيروت، 2003، ص3.

7- ابن بطوطة رحلة ابن بطوطة "في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" جـ1 جـ2، ص4.

8- فهيم، محمد حسين، أدب الرحلات، عالم المعرفة عدد 138، الكويت 1989، ص21.

9- ابن جبير، أبي الحسن محمد بن أحمد بن جبير، رحلة ابن جبير "رسالة إعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك" دار ومكتبة الهلال- بيروت 1986.

10- حمود، خضر موسى محمد، أدب الرحلات وأشهر أعلامه العرب ونتاجهم، دار الكتب العلمية، بيروت 2011، ص10-11.

11- حمود، المرجع نفسه، ص12-13.

12- عوض، محمد مؤنس، الرحالة الأوروبيون في العصور الوسطى، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة 2004، ص7.

13- عوض، المرجع نفسه، ص121-122.

14- عوض، المرجع نفسه، ص10.

15- عوض، المرجع نفسه، ص.5

16- ويكيبيديا شبكة الانترنيت؛ التطيلي، بنيامين بن يونه التطيلي النباري الأندلسي ( 561-569هـ) رحلة بنيامين، ترجمها عن الأصل العبري وعلّق حواشيها وكتب ملحقاتها عزرا حدّاد، المطبعة الشرقية، بغداد 1364هـ/ 1945م، مقدمة المحقق والمترجم ص 22-24؛ ناجي، عبد الجبار وحسين داخل البهادلي، بغداد في كتابات الرحالة العرب والأجانب، بيت الحكمة، بغداد 2003، ص192-197.

17- التطيلي، المصدر نفسه مقدمة المحقق حداد ص22، عوض، المرجع نفسه ص39-51.

18- شبكة الانترنيت ويكيبيديا رحلة بنيامين التُّطيلي باللغة العربية والإسبانية والإنكليزية.

19- التطيلي، المصدر نفسه مقدمة المحقق حداد ص22-30؛ شبكة الانترنيت ويكيبيديا.

20- التطيلي، المصدر نفسه، مقدمة المحقق حداد ص 14-17؛ ابن خرداذبه، المسالك والممالك، ص103-145، نقلاً عن حداد.

21- التطيلي، المصدر نفسه، ص16.

22- التطيلي، المصدر نفسه، ص17-18.

23- التطيلي، المصدر نفسه، ص18-19.

24- عوض، المرجع السابق ص39-43، شبكة الانترنيت ويكيبيديا.

25- التطيلي، المصدر السابق ص.29

26- ناجي، عبد الجبار، بغداد في كتابات الرحالة العرب والأجانب، ص192-197؛ رحلة بنيامين (النص) ص132.

27- رحلة بنيامين (النص) ص131.

28- رحلة بنيامين ص139.

29- الحموي، ياقوت، معجم البلدان، دار صادر بيروت 2007، جـ2، ص456-466.

30- رحلة بنيامين ص131.

31- المصدر نفسه ص.131

32- المصدر نفسه ص132.

33- المصدر نفسه ص.122

34- ابن جُبير، أبي الحسن محمد بن أحمد بن جُبير، رحلة ابن جُبير، دار ومكتبة الهلال، بيروت 1986، ص181.

35- رحلة بنيامين ص133.

36- المصدر نفسه ص.134

37- المصدر نفسه ص134-.135

38- المصدر نفسه ص.135

39- رحلة ابن جُبير ص.180

40- رحلة بنيامين ص.135

41- المصدر نفسه ص.136

42- المصدر نفسه ص136-137.

43- المصدر نفسه ص127-.139

44- عوض، المرجع السابق ص 39-43، ص121-125؛ ناجي، عبد الجبار، المرجع السابق، ص192-197، شبكة الانترنيت ويكيبيديا.

**ثبت المصادر والمراجع**

القرآن الكريم.

1- الأندلسي، بنيامين بن يونه- التطيلي النباري (ت 569هـ) رحلة بنيامين، ترجمة وتحقيق عن الأصل العبري عزرا حداد، المطبعة الشرقية، بغداد 1945.

2- ابن بطوطة،محمد بن عبد الله بن محمد (ت 779هـ)رحلة ابن بطوطة(في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)،جـ1جـ2،تحقيق محمد عبد الرحيم،دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع،بيروت 2003.

3- ابن جُبير، أبي الحسن محمد بن أحمد (ت 614هـ)، رحلة ابن جُبير (رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك)، دار مكتبة الهلال، بيروت 1986.

4- حسن، زكي محمد، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، شركة نوابغ الفكر، القاهرة 2008.

5- حميدة، عبد الرحمن، أعلام الجغرافيين العرب، دار الفكر المعاصر، بيروت- دمشق 1995.

6- الحموي، ياقوت، معجم البلدان، دار صادر بيروت 2007.

7- حمود، خضر موسى محمد، أدب الرحلات وأشهر أعلامه العرب ونتاجهم، دار الكتب العلمية بيروت 2011.

8- الشهابي، مصطفى، الجغرافيون العرب، دار المعارف بمصر، القاهرة 1962.

9- عوض، محمد مؤنس، الرحالة الأوروبيون في العصور الوسطى، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة 2004.

10- فهيم، حسين محمد، أدب الرحلات، عالم المعرفة رقم 138، الكويت 1989.

11- مؤنس، حسين، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، مدريد 1967.

12- ناجي، عبد الجبار وحسين داخل البهادلي، بغداد في كتابات الرحالة العرب والأجانب من القرن التاسع إلى القرن الخامس عشر الميلادي، بيت الحكمة، بغداد 2003.

13- ويكيبيديا Wikipedia شبكة الانترنيت- الموضوعات التالية:

- وصف كتاب رحلة بنيامين.
- بعد مرور (66) عاماً على صدور الطبعة الأولى (بغداد 1945) من كتاب "رحلة بنيامين التطيلي" ترجمة الأستاذ عزرا حداد وصدور طبعة ثانية عام 2002 عن المجمع الثقافي – أبو ظبي.
- بنيامين التطيلي (باللغة الإسبانية) – Benjamin de Tudela
- بنيامين التطيلي (باللغة الإسبانية) – Benjamin de Tudela
- The Itinerary of Benjamin of Tudela, Marcus than Adler M.A. London 1907.